الحياة الثقافية في آثار الجاحظ

أ.م.د. عبد الحسن حسن خلف
كلية التربية / جامعة ميسان

المبحث الأول

الرفقة بين القرَّاء والكُتَّاب

لقد أسهب الجاحظ في الحديث عن فضائل الكتاب ، وهي عديدة ، وقد فصل الحديث ، عن جوانبها العلمية والاجتماعية والدينية ، التي ترتبط عادة بالفكر والتاريخ والحضارة ، ونود الحديث هنا عن جوانبها المرتبطة بالقارئ ، ونعني بها الرفقة والملازمة أن العربي في بداوته كان رفيقه السيف والفرس والناقة ، وإذا رجعنا إلى تلك الفضائل التي يرعى الجاحظ في تغريها في تفريعها وجدنا الرفيق احد ثلاثة : الصديق والجليس والكتاب [1] . وليس من الواجب أن يكون الجليس صديقاً ، وتختلف مكانتها باختلاف المرحلة الحضارية . اذ ترتفع مكانة الصديق غالباً في المجتمعات التي تتطلب حياتها التعاون في العمل والاشتراك في المشاريع الاقتصادية والأعمال التجارية ، ولم يكن عصر الجاحظ صناعياً ولا تجارياً ، وإذا رجعنا إلى تفريعاته وجدناه يفضل الكتاب على الصاحب المتملق الذي يعامل بالمكر ويخدع بالنفاق ويحتال

[1] ينظر : الحيوان ١/٥٠- ٥٢ .

بالكذب ويواظب على الشغب ويرغب في الجدال [١] ، وهذهِ أخلاق تتطلبها المنافع ، وتستوجبها الخلافات الفكرية وتصارع المذاهب العقائدية ، وتباين الميول السياسية التي طبعت عصر الجاحظ بسماتها .

أما الجليس فهو الشخص الذي يجمعه به مجلس ، أي مكان الجلوس [٢] ، وتحلو مكانته لكي يبدو لنا في أوقات الأزمات ، عندما تنتشر البطالة ، وتطول أوقات الفراغ ، وتوتر في نفوس الناس الوحشة والوحدة ، ولعل الجاحظ قد أدرك هذا عندما قال : ((ولم تضطرك معه وحشة الوحدة إلى جليس السوء ، ولو لم يكن في فضله عليك وإحسانه إليك ، إلا منعه لك من الجلوس على بابك ، والنظر إلى المارة بك ، مع ما في ذلك من التعرض للحقوق التي تلزم ، وفي فضول النظر ، وفي عادة الخوض فيما لا يعنيك ، ومن ملابسة صغار الناس وحضور الناظر الساقطة))[٣] . وقد تعاطفنا سابقاً مع هؤلاء البطالين وقلنا إنهم طبقة واسعة من ضحايا الحضارة الذين فقدوا مستلزمات الحياة الكريمة وخضعوا لعوامل القهر وأهمها الفقر ، ووقعوا تحت سيطرة الاستبداد أو الاستعباد ، فحرموا من فرص التعليم ، وخسروا رفيقاً لطيفاً وجليساً طيباً ومؤدباً وهو الكتاب . وتعلو مكانة الكتاب بلا ريب في مراحل الازدهار الثقافي ولا تتبع بالضرورة ومراحل الرخاء الاقتصادي أو التطور الحضاري وانتشار وسائل الطباعة وأدون الكتابة وأحسب أن للتوجه الفكري للحياة الاجتماعية اليد الطولي ، فالناس في مراحل الحضارة المختلفة إما أن يبتغوا إشباع حاجاتهم المعنوية أو المادية أو يوازنوا بينهما ، والأخيرة هي المثلى والجادة الوسطى ويخسر

---

[١] ينظر : المصدر نفسه ١/٤٢ –٥١ .

[٢] ينظر : مختار الصحاح (جليس) .

[٣] الحيوان ١/٥١– ٥٢ .

الكتاب مكانته في المرحلة التي ينهمك فيها الناس بإشباع حاجات الجسد ، وقد أشار الجاحظ إلى أن ((العلم ... كان حياة العقل ، كما إن العقل حياة الروح ، والروح حياة البدن))[١] ، فهذهِ الأقانيم الثلاثة هي التي تحدد طبقة المرحلة الحضارية ومتطلباتها ، فالعقل زادهُ العلم ، والروح زادها الإيمان ، والبدن زاده اللذة ، وقد روى الجاحظ عن إبراهيم بن ألسندي مرة قوله : ((كان نماء النفس بالأنفاق على الكتب ، دليلاً على تعظيم العلم ، وتعظيم العلم دليل على شرف النفس وعلى السلامة من سُكر الآفات))[٢] .

وسكر الآفات هي المراحل التي لا تصحو فيها النفوس من الإدمان على شهواتها وملذات أجسادها ، فعلى الكتاب ألاَّ ينتظر منها عناية ويعظم العلم إذا شرفت النفس ، أي علَتْ ، وعلوها يُعبَّر عن سموها على ملذاتها ، والكتاب يعلو بعلوّها ، أي ترتفع مكانته بارتفاع مكانتها ، وقد أشار الجاحظ إلى أناس في عصره كانوا يعيبون الكتاب ، فقال لبعضهم ((عبتَ الكتاب)) [٣] وأجتمع الرد على من زرى على واضع الكتب))[٤] ، أي إنهم يعيبون الكتب ومؤلفيها ، وبلا ريب يعيبون قراءها ، وإشارة الجاحظ إليهم ، ورده عليهم ومحاولته إقناعهم بفضائل الكتاب تعني إنهم لم يكونوا قليلين ولكنهم ليسوا بأكثرية ، ولم يذكر الجاحظ طبيعتهم ولكننا نستطيع تحديدهم من خلال أقواله في أماكن أخرى ففي حديثه عن الإنسان الذي يرغب في العلم ذكر أن ((نفقته التي تخرج في الكتب ألذُّ عنده من إنفاق عشاق القيان ، والمستهترين بالبنيان))

---

[١] رسائل الجاحظ /في كتاب الفتي ٣١٨/١ .

[٢] الحيوان ٥٥/١- ٥٦ .

[٣] المصدر نفسه ٤١/١ ، ٧٤ .

[٤] الحيوان ٥٥/١ .

[١] وهؤلاء صنف منهم وهم الصبيان الذين لا يرون في الحياة معنى إلا مغازلة البنات ، والأغنياء الذين يرون لذة الحياة في القصور الشاهقات ، ومقارنتهم بمن ينفق على الكتاب دليل على اثر نقيض له ، لا يستبعد أن كلا الفريقين ويزري على الآخر ، بدليل أن الجاحظ نفسه المؤلف والمغرم بالكتب قد ازدراهم فقد أضاف عشق الأولين إلى القيان ، أي الإماء ، ووصف الآخرين بالمستهترين ، وهي كلمة تدل على الولع وعدم المبالاة والتها تر .

وفي حديثه عن التعليم قال : ((ولولا جياد الكتب وحسنها ، ومبينها ومختصرها ، كما تحركت همم هؤلاء لطلب العلم ، ونزعت إلى حب الأدب وأنتفت من حال الجهل ، وأن تكون في غمار الحشوْ ، ولدخل على هؤلاء من الخلل والمضرة من الجهل وسوء الحال))[٢] وهؤلاء فريق ثانٍ وهم الجهال والحشو ، وقد أطلق الجاحظ على هؤلاء مرة صغار الناس وحذر من ملابستهم وحضور ألفاظهم ومعانيهم وأخلاقهم وجها لاتهم))[٣] . ونريد أن نتعاطف مع هؤلاء مرة أخرى ، فمن المحتمل أن كثيرين منهم قد حاولوا التعليم ، إلا أنهم فشلوا فيه ، لأسباب لا تعد ولا تحصر ، تختلف باختلاف حياتهم وتجارتهم وظروف دراستهم وطبيعة المرحلة الحضارية التي يعيشون فيها ، ومن الأفضل ان نشفق عليهم ونأخذ بأيديهم ، ومن الطبيعي أن ينفروا من الشيء الذي فشلوا فيه ، وهو الكتاب ، ويزدروا أهله والمتعجبين به وهم مؤلفوه وقراؤه وإذا كان الذين نجحوا في التعليم يجعلون ((بدل الطلب أو للكسب النظر في الكتب))[٤] فالذين

---

[١] ينظر : مختار الصحاح (هتر)

[٢] الحيوان ٨٧/١ .

[٣] ينظر : المصدر نفسه ٥٢/١ .

[٤] الحيوان ١٠١/١ .

أخفقوا فيه يكونون على نقيض منهم ، اذ ينصرفون عن الكتاب إلى الكسب ، ولكن الغالبية في عصر الجاحظ قد حالفهم الحظ وتوفرت لهم ظروف النجاح ، ففي عصر الجاحظ((هبت ريح العلم والجهل ، وقامت سوق البيان والعلم))[١] ، نلاحظ في أقوال الجاحظ عن تأليف كتبه والقراء في عصره أنهم كانوا يستفتون الكتب ويقرؤنها على العلماء ، ويكتبونها بخطوطهم ، ويتدارسونها بينهم ، ويرونها لغيرهم [٢] مما يعني رواج هيمنة الاستنساخ والوراقة ، ووجود مكتبات يطالع فيها القراء ، وانتشار الكتابة والخط ، والاختلاف إلى اماكن للدراسة ، وكثرة المؤلفين والرواة ، وهذه الجوانب كلها مرتبطة بالكتاب ومترابطة مع موضوع (المكتبات) ولهذا ستخرج عن كثير منها ...

الوراقة والاستنساخ

لم يغفل الجاحظ الفوائد الاقتصادية للكتب ، فذكر أنها ((تجلب الحال ، وتكسب المال))[٣] ولعل المقصود بالحال هنا تغير الوضع الاجتماعي للإنسان نتيجة تحصيله العلمي ، فلولا الكتب لما أنفق همم طلاب العلم ((من حال الجهل ، وأن تكون في غمار الحشو ، ولدخل على هؤلاء من الخلل والمضرة من الجهل وسوء الحال ، وعسى ألا يمكن الإخبار عن مقداره))[٤] فالجهل يحشر أصحابه في غمار الحشو في التسلسل الطبقي ، وهذه هي الحال السيئة التي تجلب لأصحابها الخلل والمضرة لأنها تجعلهم في عداد الطبقة السفلى في المجتمع ، ((وقد تجد الرجل يطلب الآثار وتأويل القرآن

---

[١] المصدر نفسه ٨٧/١ .

[٢] ينظر : رسائل الجاحظ ، فصل ما بين العداوة والحسد ٣٥١/١ .

[٣] الحيوان ٩٩/١ .

[٤] المصدر نفسه ٨٧/١ .

ويجالس الفقهاء خمسين عاماً فقيها ولا يجعل قاضياً))[١] لأنه ما يزال أمياً لم يؤهل تأهيلاً علمياً لتعلم المهنة ، فإذا انقطع عن المجالسة المقتصرة على السماع فسوق ما حفظه من خمسين عاماً في بضع سنوات فما عليه ((إلا أن ينظر في كتب أبي حنيفة وأشباه ابي حنيفة ، ويحفظ كتب الشروط في مقدار سنة أو اثنتين حتى تمر ببابه فتظن أنه من بعض العمال ، وبالحرا عليه من الأيام إلاّ اليسير حتى يصير حاكماً على مصر من الأمصار أو بلد من البلدان))[٢] ويمكن أن نطلق على هذه طفرة في الحياة الاجتماعية ، ولعل الجاحظ قد بالغ في قصر مدة تأهيلها فمن العسير على الإنسان مهما كان ذكياً وحافظاً أن ينظر في كتب أبي حنيفة ويحفظ كتب الشروط في مقدار سنة أو سنتين أو أيام يسيرة ليصير بعدها حاكماً ، اللهم إلا إذا كان من حزب الأمير ، أو مضحكاً ممراحاً في قصر الأمير ((لأن الإنسان وإن أضيف إلى الكمال وعرف بالبراعة ، وغمر العلماء فإنه لا يكمل أن يحيط علمه بكل ما في جناح بعوضة ، أيام لدينا))[٣] . ولعل قمة الإعجاب بالكتاب قد أنست الجاحظ هذا الكلام.

أما المال فأن الكتب في الأمور المختلفة صارت سلعة تباع وتشترى ، تدر رزقاً على المؤلفين والناسخين والمتعاملين بها وبأدواتها ، وتربيد الوقوف عند الوراقين والناسخين ، والناسخ الأول للكتاب هو المؤلف نفسه ونسخته هي الأصل، وتأتي بعدها نسخ طلابه الذين ينقلون عنه سماعاً أو استملاءاً أو

---

[١] الحيوان ٨٧/١ .

[٢] المصدر نفسه ٨٧/١ .

[٣] المصدر نفسه ٢٠٠/٥ .

استنساخاً ودونها مرتبة النساخ الذين كانوا يكتبون معانيهم من نسخ الكتب [١] ولم يكن الحصول على الكتب في العصور السابقة سهلاً وميسوراً . لأنهم ينسخون كتبهم بأيديهم مما يحتاج إلى كثير من الوقت والجهد [٢] . وقد ذكر الجاحظ نصاً يوضح هذه الصعوبة التي يعانيها القدماء في نسخ الكتب فقد ذكر ((لعتبي لبعض القدماء ، فقال : لولا طوله وكثرة ورقه لنسخته))[٣] ، فذكر الراوي لذلك الكتاب يعني أنه كان يعده من الكتب القيمة التي تحتاج إلى استنساخ ، أي اعادة طبع بمفهومنا وانه كان لبعض القدماء ، فاستنساخه يدل على رغبة القراء في إحياء التراث القديم ، ولكن القارئ الذي يود استنساخه والذي هو بمثابة ناشر بمفهومنا يواجه صعوبة وهي مشقة استنساخ كتاب ضخم في مادته وحجمه ، مما يتطلب ورقا كثيراً ومداداً غزيراً ووقتاً طويلاً وعملاً مضيناً ، وكأن الناسخ أشفق على نفسه في القيام بهذا العمل لأسباب يمكن استخلاصها وتلخيصها بضعف إمكانيات ، فقال له ((ابن الجهم : لكني ما رغبنا فيه إلا الذي زهدك فيه ، وما قرأت قط كتاباً كبيراً فاخلاني من فائدة ، وما أحصي كم قرأت من صغار الكتب فخرجت منها كما دخلت))[٤] . وكأن هذا رأي لناشر آخر ، يمكن وصفه بأنه طموح في الإقدام على نشر أعمال ضخمة ، ولا يفكر في خسائرها ومتاعبها ، لأنه يضع نصب عينه (الفائدة) وهي بطبيعة الحال ثقافية ، والعوامل الكامنة وراء طموحه هذا يمكن استخلاصها وتلخيصها بوفرة إمكانيات ، وقد روى الجاحظ لنا نصاً أكثر دلالة

---

[١] ينظر : أصول نقد النصوص ونشر الكتب ص١٥- ١٧ .

[٢] ينظر : المورد مجلد التاسع عشر العدد الأول ١٩٩- ص٢٢٧ .

[٣] الحيوان ٥٣/١- ٥٤ .

[٤] المصدر نفسه ٥٤/١ .

، حدثنا أبو عثمان الجاحظ قال : ((لقد دخلت على إسحاق بن سليمان في إمرته ، فرأيت السَّماطي والرجال مثولاً كأن على رؤوسهم الطير ، ورأيت فرشته وبزّته ، ثم دخلت عليه وهو معزول ، وإذا هو في بيت كتبه وحواليه الأسفاط والرقوق والقماطر والدفاتر والمساطر والمحابر ، فما رأيته قط أفخم ولا أنبل ، ولا أهيب ولا أجزل منه في ذلك اليوم لأنه جمع مع المهابة المحبة ، ومع الفخامة الحلاوة ومع السؤدد الحكمة))[1] ، ونريد أن نمسك الخيط من آخره ، وندخل إلى النص من باب الخروج ، حيث تلاقينا هذه الصفات الفخمة والمترادفة: المهابة والمحبة ، الفخامة والحلاوة ، السؤدد والحكمة . وإذا فصلنا هذه الأوصاف المترادفة في استعمال الجاحظ والمعطوفة على بعضها في استعمالنا وجدنا الصفة الأولى في كل منها فخمة والثانية رقيقة ، وإذا قسناها على الشخص الموصوف بها وجدناها تمثل طورين مختلفين في حياته ، كان في الطور الأول اميراً ، ولصفات التي يضيفها على نفسه هي الأولى في المترادفات وهي : المهابة ، والفخامة ، والسيادة ، ويحقق هذه الصفات عن طريق السلطة ، حين يجعل السماطي والرجال مثولاً كأن على رؤوسهم الطير ، وهو بينهم يتبختر ببزته العسكرية ويجلس على فرشته الفاخرة ، وبقي في هذا الطور إلى ما شاء الله)) ثم عزل فخسر السلطة والمهابة وقد اعتاد أن يراه الناس فخماً نبيلاً مهيوباً جزلاً وهم بحاجة إليه في طوره الأول.

فأصبح في الطور الثاني بعد عزله بحاجة إليهم ، ولأجل أن يبقى نبيلاً مهيوباً في أعينهم ، عليه أن يتودد إليهم ويحلو في عيونهم ، ويظهر بمظهر الحكمة لديهم ، فما هو الميدان الذي يحقق له ذلك في عصر الجاحظ ؟

---

[1] المصدر نفسه ١/٦١- ٦٢ .

اخبرنا الجاحظ عن ذلك قال : ((حدثني صديق لي قال : قرأت على شيخ شامي كتاباً فيه من مآثر غطفان ، فقال : ذهب المكارم إلا من الكتب))[1] وقد ذكرنا سابقاً أن هذا النص يعبر عن طورين في حياة المجتمع العربي ، تكون المآثر القبلية سيدة في الأول ويحتل العلم الصدارة في الطور الثاني ومكارم الامير المعزول في طوره الأول كانت السلطنة ، وسينزل بطبيعة الحال في طوره الأول كانت السلطنة وسينزل بطبيعة الحال في طوره الثاني إلى ميدان العلم ، ولم يكن الأمير المعزول عالماً ، ولكنه يستطيع أن يشتهر بأدوات العلم وهي الكتب ، لأن طوره الأول وفر له أسباب ذلك من مال وشهرة ، فنهض بمشروع أشبه ما يكون بالمطبعة في عصرنا ، وقد حدثنا الجاحظ عنه في نصه المذكور سابقاً قال : ((ثم دخلت عليه وهو معزول ، وإذا هو في بيتي كتبه ، وحواليه الاسفاط والرفوف والقماطير والدفاتر والمساطر والمحابر)) فهو يمتلك بيت كتب أي مكتبة خاصة ، ونتوقع إنها كانت فخمة تليق بالمكانة الاجتماعية لصاحبها ، وقد وفر لها أدوات الاستنساخ المعروفة في عصره كلها ، حتى أوشكت أن تكون مكتبة ومطبعة بمفهوم عصرنا ، وإذا دققنا في إمكاناتها المذكورة وجدنا أنها لم تقتصر على أدوات الكتابة وان بعضها يدل على مظاهر الأبهة والمهابة والفخامة التي اعتاد عليها صاحبها في طوره الأول ، فالمساطر هي الخمر الحامض ، وقيل ضرب من الشراب فيه حموضة ، والاسفاط تشبه أدوات النساء التي يعبى فيها الطيب ، وقيل هي ضرب من الاشربة ، وهذان اللفظان روميان أو فارسيان [2] ، مما يعني إن صاحب المكتبة كان مرفهاً ، فهو يتناول الأشربة ، وإذا حملنا النص دلالات أكثر قلنا

---

[1] الحيوان ٥٢/١ .

[2] ينظر : اللسان – (سطر ، سفط)

إن المكتبة تصنع نادياً للمشروبات ، ولعل صاحب المكتبة الذي هو ناسخ في الوقت ذاته يستعين بتلك المشروبات المتابعة العمل وهو النسخ ، وقد قلنا عنه إنه عمل مضني ، يحتاج إلى وقت وجهد ، أما أدوات الكتابة فهي نوعان : الحبر والمادة التي يكتب عليها ، والحبر هو المراد موضعه المحبرة [١] .

أدوات الكتابة

أ- الورق ، أما المادة التي يكتب عليها فقد اختلفت باختلاف العصور والمراحل الحضارية والمادة الخام المتوفرة في كل بلد ، وقد ذكر ابن النديم في كلام مركز أدوات الكتابة وعوامل تطورها والبلدان التي ظهرت فيها ، فانه رأى أن الإنسان الذي في زمن آدم كتب على النحاس والحجارة قبل الطوفان ، وبعدها على الخشب وورق الشجر وكتب أهل مصر في القرطاس الذي يعمل من قصب البردي ، وكتب الصينيون على الورق الذي يعمل من الحشيش ، وقد فسر عوامل التطور بالرغبة في الخلود وحاجة الوقت [٢] ، والشيء الذي يهمنا هو أدواتها في العصر العباسي وقد أشار ابن النديم إلى تطور مرّبه بقوله : ((فأما الورق الخراساني فيعمل من الكتان ، ويقال : إنه حدث في أيام بني أمية وقيل في الدولة العباسية ، وقيل : إنه قديم العمل وقيل إنه حديث ، وقيل إن صناعاً من الصين عملوه بخراسان على مثال الورق الصيني ، فأما أنواعه :

السليماني الطلحي ، النوصي ، الفرعوني ، الجعفري ، ألطاهري ، أقام الناس ببغداد سنين لا يكتبون إلا في الطروس ؛ لأن الدواوين نهبت في أيام محمد بن زبيدة ، وكانت في جلود ، فكانت تمحا ويكتب فيها ، قال : وكانت

---

[١] ينظر : اللسان (حبر)

[٢] ينظر : الفهرست ص٣٥- ٣٦ .

الكتب في جلود دباغ النودة ، وهي شديدة الجفاف ، ثم كانت الدباغة الكوفية تدبغ بالتمرة وفيها))[١] فالتطور الحاصل هو انتقال الكتابة من مادة الجلود إلى الورق ، وهو تطور حاسم في الثقافة ، ويحتمل أن يأتي هذا التطور من مصدرين : مصر والصين ، والذي حدث إنه اقبل من الصين ، لأن الدولة العباسية ، التي قامت في خراسان وارتبطت بأهلها كانت اقرب إلى الصين موقعاً وتأثراً ، واقرب الأقوال صحة أنه حدث في الدولة العباسية ، لأن الجاحظ ينقل في رسالته في الجد والهزل التي هداها إلى محمد بن عبد الملك الزيات جدلاً بين أنصار الجلود وأنصار الورق ، مما يعني أن التطور قريب عهد بزمن تأليف الرسالة ، ولو حدث أيام بني أميه لأستقر الناس على صنف منها خلال هذه المدة التي لم تكن قصيرة ، واختفى الجدل حول الصنف الأخير ، بل إن الناس قد استعملوا الصنفين أيام الجاحظ ، مما يدل إن التطور في مراحله الأولى ، وقد حدث التطور لعاملين : الأول سياسي، هو انتصار المأمون ذي الاتجاه الخراساني على أخيه محمد الأمين ذي الاتجاه العربي الذي يناصره البغداديون وقد نهبت الدواوين التي كتبت بالجلود في أيامه ، ولعل ذلك بسبب الحرب ، والعامل الثاني اجتماعي ، وذلك أن صناعاً عملوه بخراسان من الكتان على مثال الورق الصيني أي إنه تقليد للصناعة الأصلية التي قال عنها ابن النديم إنه ((يعمل من الحشيش ، وهو أكثر ارتفاع البلد))[٢] ولعل المقصود إن ثمنه مرتفع لجودته ، ويبدو أن الصناعة تطورت في زمن ابن النديم حيث ظهرت منه أنواع خمسة ، ولكل من الورق والجلود مسميات تعارف الناس عليها ولما كان الورق تطوراً حديثاً وصناعة مستوردة أطلقوا عليه أسماء ، منها

---

[١] الفهرست ، ص٣٦ .

[٢] المصدر نفسه ، ص٣٦ .

((الطامور والطومار)) ويعني الصحيفة ، وعده بعضهم عربياً [١] ، ذكره الجاحظ بقوله : ((رُبَّ كلام قد ملأ بطون الطوامير ، قد عرف جملته وما فيه الضرر منه ، ستماءه ... أو حرف بني من ضر))[٢] ، ومعلوم أن الذي يمزق بسرعة وننشر فيه أجزاءه والذي كتبت حروف من ظهره هو الورق لرقته .

و((الدفتر ... يعني جماعة الصحف المضمومة ... الدفتر واحد الدفاتر ، وهي الكراريس))[٣] ، ويبدو أنهم كانوا يطلقون على ما نطلقه عليه اليوم مع اختلاف يسير ، حيث نطلقه اليوم على الأوراق البيضاء المجموعة بحجم صغير ، قيل الكتابة عليها باليد ويعدها ، والقدماء كانوا يطلقونها على مجموعة من الكراريس التي تضم إلى بعضها لتؤلف بعد الكتابة عليها كتاباً صغيراً ، فهي أشبه بالدوريات أو السلسلة الثقافية ، وقد روى الجاحظ حديثاً على لسان الزيات احد أنصار الجلود يشير إلى ما ذكرناه ، ((قلت لي ... ليس الدفاتر لقطني اثمان في السوق وإن كان فيها كل حديث طريف ولطف مليح وعلى نفسي ، ولو عرضت عليهم عدلها في عدد الورق جلوداً ثم كان فيها كل شعر بارد وكل حديث غث ، لكانت أثمن ولكانوا فيها أسرع))[٤] ، ورخصها في السوق يعود إلى صغر حجمها ومضمونها ، فأوراقها قليلة والعمل المبذول وهو الكتابة يتطلب وقتاً اقصر وجهداً اقل ، ومضمونها لا يحتوي علماً غزيراً أو مادة علمية عميقة ، وإنما هي قصص وأحاديث تسلية ونوادر ومجموعة

---

[١] ينظر : اللسان (طمر)

[٢] رسائل الجاحظ / كتمان السر وحفظ البيان ١٤٩/١- ١٥٠ .

[٣] ينظر : رسالة ابن قتيبة في الخط والقلم – مجلة المورد – مجلد ١٩ ع ١ /١٩٩٠ ، ص١٦٥ .

[٤] رسائل الجاحظ ، رسالة في الجد والهزل ٢٥٣/١ .

أشعار أو دواوين صغيرة وقد روى الجاحظ حديثين : عن أبي عمرو بن العلاء قال : ((ما دخلت على رجل قط ، ولا مررت ببابه فرأيته ينظر في دفتر وجلسيه فارغ اليد إلا اعتقدت إنه أفضل مني وأعقل . وقال أبو عمرو بن العلاء : قيل لنا يوماً ان في دار فلان ناساً قد اجتمعوا على سوءة ... فتسورنا عليهم في جماعة من رجال الحي ، فإذا فتئ جالس في وسط الدار ، وأصحابه حوله ، وإذا هم بيض اللحى ، وإذا هو يقرأ دفتراً فيه شعر ...))[١] ، وقد قطعنا الحديث الأخير وهو ظريف ، لأننا سنعود اليه عند الحديث عن المطالعة ، وما نقوله الآن ان الحديثين ظريفين لأنهما يعكسان صورة مشرقة لتلك الثقافة الجماهيرية .

التي كانت تلك الدفاتر تزود قراءها بها ، اذ يقرؤها الناس داخل بيوتهم، أو أثناء جلوسهم على دكات أبوابهم ، وهم ينظرون إلى المارة ، وينظر المارون إليهم بإعجاب وتقدير عندها يرون جيرانهم فارغي الأيدي من تلك الدفاتر ويقرأها الشبان في وسط الدور ، يحيط بهم الشيوخ بلحاهم البيض ؛ يستمعون إلى تلك الأشعار التي تضمها الدفاتر ، والشيوخ أصحاب للفتيان لا يتكبرون عليهم ، والفتيان لا يأنفون منهم ، ويبدو أن الذي ألف بين قلوبهم هو هذه الدفاتر التي وفرت لهم لذة المطالعة ، ((وقد علمنا أن أفضل ما يقطع به الفراغ نهارهم ، وأصحاب الفكاهات ساعات ليلهم الكتاب))[٢] .

المبحث الثاني

المكتبات

---

[١] الحيوان ١/٦٠- ٦١ .

[٢] الحيوان ١/٥٢ .

لا نستطيع الحديث عن المكتبات بمفهوم عصرنا كماهي عند الجاحظ لأن الجاحظ يفكر بمشروع مكتبه على المستوى الخاص والعام وسنحاول الحديث عنها من خلال مصطلحاتها ومظاهرها ومحاولة النظر إلى بداياتها ومراحل تطورها .

مواضعها :

يقال : (للموضع الذي يعلم فيه الكتاب مكتب ومكتبي)[١] بفتح الميم في الأولى وكسرها في الثانية والتطور ، حيث تستعمل في عصرنا كلمة (مكتب) وإذا زادنا جمعة نقول (كتاتيب) ، و(المكاتب)[٢] اللغوي والتعليمي كان لصالح الصيغة الأولى ، فقد ندرت الكتاتيب) في استعمالنا الحديث واختفت عن وسائلنا التعليمية منذ زمن عندما ظهرت المدارس الحديثة وكانوا يطلقون (المُكتب) بضم الميم وكسر التاء على (الذي يعلم الكتابة)[٣] وقد اخذ المعلم محله والذي نقوله في هذا العرض اللغوي ، إن كلمة (مكتبة) وجمعها (مكتبات) لم تكن مخصصة للمطالعة والبحث كما يعرف عنها في عصرنا وإنما كانت مرتبطة بالتعليم ويبدو أنها كانت ضيقة لا تتسع إلا لطلابها المتعلمين فيها قال عبد الله بن عبد الصمد بن أبي دؤا يصف معركة (وكان مؤدباً... لقيناهم في مقدار صحن الكتاب ، فما كان بقدر ما يقرأ الصبي أمامه حتى ألجاناهم إلى أضيق من رحم فقتلناهم فلو سقطت دواة ما وقعت إلا في حجر صبي)[٤] مما

---

[١] أدب الكتاب ١١٤/٢ .

[٢] مختار الصحاح (كَتَبَ) .

[٣] المصدر نفسه .

[٤] رسائل الجاحظ ، صناعات القواد ٣٨٧/١ . إمامه : أي ما يستعمله كل يوم يقدر له مقدار يومه . رقم الرمز الكتابي المستعمل للتعبير عن احد الأعداد .

يعني إنها تفتقر إلى وسائل الراحة وظروف التعليم كانت صعبة ولما كان التعليم مرتبطاً بالدين ظهر (المدارس والمدرس : الموضع الذي يدرس فيه والمدرس : الكتاب) [١] ويبدو أن هذا التعليم ظهر في بدايته عند اليهود قال الجاحظ (إنما حمل اليهود على الكفر لمحمد ﷺ وهم يعرفونه كما يعرفون أبناءهم أنه نبي صادق ... ويتدارسونه في بيت مدارسهم – الحسد)[٢] ، ويبدو أن إضافة البيت إلى المدارس كانت متأخرة ، وان لفظة (المدارس) (البيت الذي يدرس فيه القرآن وكذلك مدارس اليهود)[٣] وفي هذا الكلام دلا لتأن ، الأولى أن هذه المدارس كانت خاصة باليهود ، والثانية أن المسلمين جعلوا للمدارس بيتاً أي أنهم عزلوه عن بيت المعلم وهي محاولة أولى لجعل التعليم عاماً ويبدو لنا أن المدارس الحديثة متأثرة بمصطلح المدارس الحديثة متأثرة بمصطلح (المدارسة) ففي احد الدلالات (درس قرأت كتب أهل الكتاب)[٤] مما يعني أن هذه اللفظة كانت مرتبطة في أذهان العرب والمسلمين بثقافة اليهود والنصارى ومن الناحية التعليمية نقول : (درس الكتاب ادرسه درساً، أي دللته بكثرة القراءة حتى خف حفظه عليّ)[٥] مما يعني أن هناك منهجاً مقرراً يتطلب أعداده والمواضبة عليه يعتمد في الأساس على الحفظ مما يذكرنا بأساليب المدارس القديمة في التعليم ويبدو أن المدارس قد استقلت عن المكتبة في عصر الجاحظ حدثنا الجاحظ قال : (حدثني موسى بن يحيى قال : ما كان في

---

[١] اللسان (درس) .

[٢] رسائل الجاحظ فصل العداوة والحسد ٣٤٦/١ .

[٣] اللسان (درس) .

[٤] المصدر نفسه .

[٥] المصدر نفسه .

خزانة كتبا يحيى وفي بيت مدارسه كتاب إلا وله ثلاث نسخ)[١] فالنص يشير إلى أن الشخص المقصود كأن يمتلك خزانة كتبب وتعني عند القدماء (مكتبة) وله بيت مدارس وفيه كتب أيضاً فإذا شئنا الدقة نقول إن خزانته كانت بمثابة مخزن لحفظ الكتب وبيت مدارسه كان بمثابة مراجع في عصرنا فهو مكان للمطالعة والدراسة ويحتوي على كتب معينة مما يعني إن المكتبات انفصلت عن أماكن التعليم وقد ساعد على ذلك ظهور مهنة الوراقة وتطورها فاحتلت مكاناً في السوق وأصبحت سلعة مرغوباً فيها (قال أبو عبيدة قال المهلب لبنيه في وصية : يا بنيّ لا تقوموا في الأسواق إلا على زرّاد أورّاق)[٢] ومعلوم أن عصر الأمويين تعد نزاعات وصراع بين الفرق والأبوين مما يعني أن السيادة بين السيف والقلم لم تحسم لأحدهما يعد، ويعد وصيه المهلب مباشرة وفي الصفحة نفسها يروي الجاحظ عن صديق له أنه قرأ على شيخ شامي كتاباً فيه مآثر غطفان فتحسر على ذهاب المكارم إلا في الكتب مما يعني أن التطور الحضاري كان لصالح الثقافة ويفهم من وصيته المهلب أن الوراقين لم تكن لهم سوق خاصة بهم ولم تكن لأماكنهم دلالات تشير الى الدراسة، أو المطالعة فقد اقترنت مدة بأماكن بيع الخمرة وهي (الحوانيت) ، قال ابن النديم أثناء حديثه عن كتاب الأغاني لاسحق بن إبراهيم الموصلي : (اخبرني جحظه أنه يعرف الوراق الذي وضعه وكان يسمى سندي بن علِي ، وحانوته في طاق الزيل)[٣]

---

[١] الحيوان ٦٠/١ .

[٢] الحيوان ٥٢/١ زراد : صانع الدروع .

[٣] الفهرست ص١٧٥ .

والحانات الفظة عربية كانت تدل على (المواضع التي يباع فيها الخمر)[١]، وقد ذكرها الأعشى:

وقد غدوت إلى الحانوت يتبعني شاوٍ مشلٌّ شَلُولٌ شلشلٌ شولُ [٢]

وقد أطلقوا عليها مرة أخرى لفظة فارسية معربة هي (الدُّكان) التي تعني المكان الذي يُعقد عليه [٣] وقد روي أن الجاحظ (كان يكتري دكاكين الوراقين وبيت فيها للنظر)[٤] مما يعني أن هذه الدكاكين أصبحت مكتبات للمطالعة والتثقيف ولعل الجاحظ قد ابتكر طريقة فريدة في المطالعة لا ينافسه عليها احد في حب الكتب ومطالعتها وبذل الجهد وتحمل المشقة من اجلها حيث يدفع على المطالعة أجرة يعاني السهر ويحرم من النوم ويواجه مخاطر الليل واللصوص وقد تعجب من ذلك راوي الخبر نفسه وهو (أبو رهفان قال : لم أرقط ولا سمعت من أحب الكتب والعلوم أكثر من الجاحظ)[٥] وعند ازدهار الوراقة أصبحت للكتب سوق خاصة بها تقع في الجانب الشرقي من بغداد وقد قامت هذه السوق بأكثر من وظيفة فهي أماكن لاستنساخ الكتب وخطها وبيعها وشرائها ثم هي أماكن للمطالعة أي مكتبات، قال ابن النديم أثناء حديثه عن ابن أبي طاهر : (إنه كان مؤدب كتاب عامياً ، ثم تخصص وجلس في سوق

---

[١] مختار الصحاح (حين)

[٢] ديوان الأعشى الكبير ، ص٥٩ .

[٣] ينظر: مختار الصحاح (دكك) .

[٤] معجم الأدباء ٧٥/١٦ .

[٥] معجم الادباء ٧٥/١٦ .

الوراقين في الجانب الشرقي)[١] أي أنه انقطع إلى الدرس والمطالعة وكأن ذلك السوق مجمع علمي يؤهل من ينقطع إليه إلى التخصص والنبوغ في احد ميادين المعرفة أشار الجاحظ إلى مكتبات خاصة في عصره لأشخاص يبدو أنهم كانوا ذوي نفوذ ومقدرة مالية سماها مرة (بيت كتب) وأخرى (خزانة) قال الجاحظ (دخلت على إسحاق بن سليمان في إمرته ... ثم دخلت عليه وهو معزول وإذا هو في بيت كتبه وحواليه الاسفاط والدقوق والقماطير والدفاتر والمساطر والمحابر)[٢] وقد قلنا سابقاً إنه وفر لها أدوات الاستنساخ المعروفة في عصره كلها حتى أوشكت أن تكون (مكتبة ومطبعة) وقد ذكرها الجاحظ أثناء حديثه عن صيانة العلم ، مما يعني أنه يرى أن استنساخ الكتب وتخصيص مكتبات لها هو تشجيع للعلم وحرص عليه لأن المكتبات هي وسائل لحفظه وصيانته ، ويعد مصطلح (الخزانة) أكثر دلالة على تلك الصيانة (حدثني موسى بن يحيى قال : ما كان في خزانة كتب يحيى وفي بيت مدارسه كتابٍ إلا وله ثلاث نسخ)[٣] والخزانة مرتبطة عادة بالمال [٤] مما يعني أن العلم والمال أصبحا متعادلين في القيمة لأن الناس اخذوا يحفظون الكتب بوسائل حفظ المال ويبدو أن (الخزانة) تدل على الحفظ أكثر من دلالتها على المطالعة ، أي هي مكتبة محفوظة والمطالعة ستكون في مكان آخر ؛ ولهذا خصص يحيى إلى جانب خزانة كتبه بيت مدارس وقلنا سابقاً إنه بمثابة مراجع في عصرنا والجاحظ لا يحدثنا عن أدوات حفظ الكتب في تلك الخزائن

---

[١] الفهرست ص١٨٠ .

[٢] الحيوان ٦١/١ .

[٣] المصدر نفسه ٦٠/١ .

[٤] ينظر : مختار الصحاح (خزن)

وتستطيع استخلاصها من أحد الكتاب للاحقين له . فقد ظهر مصطلح (القِمَطْر) وهو (ما تصان فيه الكتب)[١] عند ابن النديم وقد سمعنا القماطير من الجاحظ مرة عندما ذكر بيت كتب اسحق بن سليمان الذي ذكرناه سابقاً إلا أنها إشارة عابرة لا تزودنا بالتفاصيل التي يذكرها ابن النديم في أكثر من موضع (قال محمد بن اسحق : كان بمدينة الحديثة رجل يقال له محمد بن الحسين ... جماعة للكتب له خزانة لم أر لأحد مثلها كثرة تحتوي على قطعنه من الكتب العربية في النحو واللغة والأدب والكتب القديمة ... فأخرج لي قمطراً كبيراً فيه نحو ثلاثمائة رطل جلود فلجان وصكاك ، وقرطاس لمصر وورق صيني تهامي وجلود آدم وورق خرساني فيها تعليقات عن العرب وقصائد مفردات...)[٢] فقد تعجب ابن النديم من كثرة محتوياتها ونعلم أنه وراق له خبرة ممتازة بالمصادر وحجم المكتبات وقيمتها وقد أطلق عليها خزانة أي مكتبة خاصة وهي عبارة عن قمطر كبير فيه نحو ثلاثمائة رطل وفي هذا دلالة كبيرة هي أنهم كانوا يقدرون قيمة المكتبة وحجمها بالوزن ووحدة الوزن في عصرهم كانت رطل، و (رطل فتح الراء وكسرها نِصفُ مَناً)[٣] أي أن القمطر كان يزن مائة وخمسين مناً ومحتوياته كانت مكتوبة على سبعة أنواع من مواد الكتابة مما يعني أنه جمعها لعصور مختلفة .

وقد وصفه ابن النديم بأنه كان جماعة للكتب و (لما مات هذا الرجل فقدنا لقمطر وما كان فيه ، فما سمعنا له خبراً ، ولا رأيتُ منه غير هذا

---

[١] مختار الصحاح (قِمطر) .

[٢] الفهرست ص٦٢ .

[٣] مختار الصحاح (رطل) .

المصحف ، هذا على أن كثرة بحثي عنه)[١] ، وذلك صح هذا الخبر دل على ان هناك مكتباتٍ كبيرة وثمينة كانت تفقد في عصرها لأسباب عديدة ، مما يدل على أن التراث الذي وصل إلينا كان يسيراً إذا ما قيس بواقعه الحقيقي في عصره لو سلم من الضياع والعبث والتلف ، وقد سبقنا ابن النديم نفسه في هذا التعجب فقال عنها : ((رأيتها وقلبتها فرأيت عجباً إلا أن الزمان قد اخلقها وعمل فيها عملاً ادرسها وأحرفها)[٢] ويعد كتاب الفهرست لابن النديم ببيوغرافيا أمينة لمصادر المكتبات في عصره مما رآه ابن النديم وقرأه وسمع عنه .. ونعود إلى القِمطر بعد اشتغالنا عنه بمحتوياته وألفاظه (القِمَطْر بوزن الهِزَيْر والمِقَطْرةَ ... ولا يقال بالتشديد وينشد :

لـيس بـالعلم مـا يعـب القِمطَـر مـا العلـم إلا مـا وعـاه الصَّـدرُ [٣]

وقد أوردنا هذا البيت لحاجة لنا فيه وإن كنا لا نعرف قائله وجعلنا إياه ينفانا ولا يضرنا ونفعه لنا أنه كان ينشد أي أن مغزاه طغى على قائله وكأنه أصبح مثلاً شعبياً يتداوله الناس للتعبير عن الاختلاف في التوجه الثقافي نتيجة للتطور الاجتماعي بين مرحلتين مختلفتين الأولى تمثل الثقافة القائمة على الذاكرة والحفظ وأصحابها قدماء محافظون والثانية تمثل الثقافة المعتمدة على وسائل التطور وهي القماطر لحفظ الكتب وصيانتها ورعاية ما فيها من علم للاستفادة منه في الحاضر ونقله إلى الأجيال القادمة وأصحابها محدثون

---

[١] المصدر نفسه (قمطر) .
[٢] الفهرست ص٦٣ .
[٣] مختار الصحاح (قمطر) .

مجددون وإذا رجعنا إلى عصر الجاحظ و ما سبقه ؛ سمعنا رجلاً يُنشد ليونس النحوي :

استودع العلم قرطاساً فضيعَّه فبأس مستودع العلم القراطيسُ

... فقال يونس : قاتله الله ، ما اشد ضنا نته بالعلم وأحسن صيانته له)[١] ولا نتفق مع يونس النحوي اللذين قالا البيتين السابقين فلو اقتصر الناس على ما وعاه الصدر ولم يعتمدوا على القماطير والقراطيس لما وصل إلينا بيتاهما السابقان ولما عرفنا أي شيء عن يونس النحوي ، ولم يبق لنا مع البيت إلا ملاحظة واحدة وهي أن الخلاف في عصر الجاحظ كان بين الكتب والذاكرة وأصبح فيما بعد بين القماطير والذاكرة أي أن محور الخلاف في بدايته كان حول الكتب وفيما بعد حول المكتبات .

عاصر الجاحظ المأمون الذي أنشأ بيت الحكمة وهي بمثابة مؤسسة علمية للترجمة والتأليف والكتب إلا أن الجاحظ لم يتحدث عن مكتبتها وقد أشار إلى صاحبها (سلم) وعده من المؤلفين الذين سبق عصرهم [٢] ولعله يقصد بذلك المؤلفين الذين توفوا قبله ونجد معلومات عنهما عند ابن النديم ، فقد قال عنها مره: ((قرأت في كتاب وقع إلي قديم النسخ يشبه أن يكون في خزانة المأمون))[٣] وعبارة ((وقع اليَّ)) تعبر عن فرحة الوراق بالحصول على كتاب قيم وقديم ساعده الحظ وعلى حيازته ، ووصفه له بأنه قديم النسخ يدل على أنهم يعدونه مخطوطة قديمة ، وما بقي من النص يعني أن الناس في عصر

---

[١] الحيوان ٦١/١ .

[٢] ينظر : رسائل الجاحظ /فصل ما بين العداوة والحسد .

[٣] الفهرست ص٣٧ .

ابن النديم والوراقين والمحترفين منهم خاصة كانوا يعرفون الكتب التي تعود إلى خزانة المأمون ، ولعلهم يستدلون على ذلك من مادة كتابتها وخطوطها خاصة ، وقد أشار ابن النديم نفسه الى تطور حدث على الخطوط أيام العباسي والمأمون خاصة ، قال : ((لم يزل الناس يكتبون على مثال الخط القديم الذي ذكرناه إلى أول الدولة العباسية ، فحين ظهر الهاشميون اختفت المصاحف بهذه الخطوط ، وحدث خط يسمى العراقي وهو المحقق الذي يسمى وراقي ، ولم يزل يزيد ويحسن حتى انتهى الامر إلى المأمون ، فاخذ أصحابه وكتابه بتجويد خطوطهم ... من نشأ ذو الرياستين ، الفضل بن سهل اخترع قلماً هو أحسن الأقلام ويعرف بالرياسي))[1] أي أن تطور الخط بثلاثة مراحل ، الأولى حدثت في بداية الدولة العباسية ظهر فيها الخط العراقي ، وعندما حقق أي أصبح رصيناً سموه ((وراقي)) ، اخذ الكتاب يحسنون فيه ويزيدون ، وفي عهد المأمون بدأت المرحلة الثانية عندما اخذ أصحابه وكتابه بتجويد خطوطهم ، أي أن الخط صار فناً مستقلاً عن الكتابة يتأنق الكتاب في تجويده .

والمرحلة الثانية زمن الفضل بن سهل الذي اخترع القلم الرياسي ونستخلص مما سبق أن محتويات خزانة المأمون قد دونت بخطوط متميزة تمثل مرحلة كتابية خاصة ، وقد اختلفت معالمها وانهار كيانها خلال الزمن الممتد بين وفاة الجاحظ ٢٥٥هـ)) وزمن تأليف كتاب الفهرست ٣٧٧هـ)) ولعل سبب اختفاؤها يعود إلى أيدٍ تلاعبت بها ، ونامت عيون الخلفاء وأولي الأمر عنها ، فافتقرت إلى عيون تحرسها ، ونفهم ذلك من عبارة ابن النديم السابقة : قرأتُ في كتاب وقع إليَّ قديم النسخ يشبه أن يكون في خزانة المأمون ، مما يعني أن قسماً من مصادرها ما يزال حياً ، يسقط أحياناً بأيدي الوراقين في السوق ، ولا

[1] المصدر نفسه ، ص ١٩- ٢٠ .

يعرفونه إلا بعناء وبأسلوب التخمين والمشابهة ويبدو أن لخزانة المأمون أصولا ما تزال واضحة في أذهان الوراقين زمن ابن النديم يعرفونها من خلال خطوطها وطبيعة مصادرها والمادة المدونة فيها .

تختلف العرب عن الأمم المحاصرة لهم في العناية بالمكتبات العامة ، وإذا استثنينا خزانة المأمون لم يعثر على تجارب تأسيس مكتبات عامة تتولى شؤونها الدولة وترعى محتوياتها وتحافظ عليها وقد ذكر ابن النديم أن ملوك الفرس سباقون في العناية بصيانة العلوم والمكتبات ، فقد نقل عن ((ابي معشر في كتاب اختلاف الزيجات : أن ملوك الفرس بلغ من عنايتهم بصيانة العلوم ، وحرصهم على بقائها على وجه الدهر ، وإشفاقهم عليها من إحداث الجو وآفات الأرض ، أن اختاروا لها من المكاتب أصبرها على الأحدث وأبقاها على الدهر وبعدها من التقفي والدروس ، لحاء شجر ألخرنك ، ولحاؤه يسمى : التوز، وبهم اقتدوا أهل الهند والصين ومن يليهم من الأمم في ذلك))[1] ، هذه هي الخطوة الأولى في تكوين مكتبات عامرة ، فالخطوة الأولى تسمى تخطيط قائم على الحرص والعناية فالعبرة المفيدة لا تكون في أن تؤلف كتباً وتدونها وتبنى لها بيتاً ثم تتركها لضروف الدهر وحيل اللصوص ، ويشير النص السابق الى أن ملوك الفرس قد أدركوا أن أعداء الكتب هما الزمان والمكان ، ورجال الزمان هم الرياح والعواصف والزلازل والخسوف والرطوبة ، ووقاية الكتب منهم تكون باختيار مادة الكتابة ، وقد وقع اختيار الفرس على التوز ، ولا بد أنهم قد استخدموه وجربوه وتأكدوا من صلاحيته ، بحيث اقتدى بهم أهل الهند والصين ومن يليهم من الأمم ، ولم يذكر ابن النديم العرب ، مما يعني أنهم قد تخلفوا عن الأمم الأخرى في هذا الميدان . ولعل السبب هو تأخر الصناعة لديهم .

---

[1] الفهرست ص ٢٩٧ .

واذا رجعنا إلى الجاحظ وجدناه يحذر من آفتي الأرض وهما الأرضة والفأرة [١] .

وقد دعا إلى هجر الجلود ؛ لأن ((الصفرة إليها أسرع وسرعة انسحاق الخط فيها اعم))[٢] . وكلاهما ينتج عن إحداث الجو وخاصة الرطوبة التي خشي ملوك الفرس على الكتب منها ، ولا يستبعد أن يكون الجاحظ قد اطلع على مصادر تعني بالكتب وصيانتها مشابهة لكتاب أبي معشر الذي اطلع عليه ابن النديم ، ونعود إلى الكتاب المذكور مرة أخرى ، فقد حدثنا ابن النديم في كتابه الفهرست نقلاً عن ((ابن معشر في كتاب اختلاف الزيجات : أن ملوك الفرس ... لما حصلوا المستودع علومهم أجود ما وجدوه في المعالم من المكاتب ، طلبوا لها من بقاع الأرض وبلدان الأقاليم أصحها تربة واقلها عفونة وأبعدها من الزلازل والخسوف وأهلكها طيناً وأبقاها على الدهر بناء ، فانتفضوا بلاد المملكة وبقاعها ، فلم يجدوا عن أديم السماء بلداً اجمع لهذه الأوصاف من أصفهان))[٣] وإذا كان النص السابق على هذا يتحدث عن الكتب ومادتها ، فهذا النص يبحث عن موقع المكتبة ويحدد مواصفات له . وحرصوا في مواصفاتهم هذه أن تتحقق مادة الكتابة وبناية المكتبة وموقعها على مقاومة لعدوين المشتركين لها وهما : الزمان والمكان ، وذلك بأن تكون التربية صحيحة قليلة العفونة .

لأنهم أدركوا أن هناك أماكن موبوءة ؛ تكثر فيها الأرضة والجرذان والفئران ، وكلهم أعداء الكتب ، يعيشون بالورقة ويقرضون الجلود ، وقد جادل الجاحظ

---

[١] ينظر : رسائل الجاحظ في الجد والهزل ٢٥٤/١ .

[٢] المصدر نفسه ٢٥٣/١ .

[٣] الفهرست ص ٢٩٧ .

فيهم، وحذر منهم . وإذ نتوخى في عصرنا للمكتبات مواقع جميلة ومقاعد مريحة وحدائق زاهرة ، فأن القدماء كانوا يبحثون عن المكان المفيد الذي يحفظ الكتب ويصونها ويحميها من عوادي الزمن وأهمها الزلازل والخسوف ، والاختلاف بيننا وبينهم في الغاية ، ويبدو أن غايتنا هو القارئ في تثقيفه وإمتاعه والترويح عنه وكأننا بذلك نشجعه على القراءة والمطالعة وهذا دليل على ضعف رغبته فيها وعزوفه عنها . بينما كان الكتاب هو الغاية الأولى للقدماء ، والسلعة الثمينة والنادرة التي لا يفرطون بها .

قال ابن داحه : ((إن العلم ليعطيكم على حساب ما تعطونه ، ولو استطعت أن أودعه سويداء قلبي ، أو اجعله محفوظاً على ناظري لفعلت))[١] .

لم يغفل القدماء عن محاسن مواقع المكتبات واختيار ملوك الفرس لأصفهان موقعاً لمستودع علومهم دليل حرص على جمال الموقع فقد اتفق علما البلدان والأدباء على صحة هوائها وعذوبة مائها وكثرة خيراتها وتنوع محاسنها وحذق أهلها بالعلوم والصناعات [٢] .

حاولنا في صفحات سابقة أن نبحث عن مصير خزانة المأمون وقد وجدنا آثاراً لها عند ابن النديم ، إلا أننا لا نصل إلى دليل قاطع ، وحياً من كتب أصفهان نود أن نبحث عن مصير كتبها ، وقد راجعنا ابن النديم الخبير بالكتب ، والمولع بمعرفة خزائنها ، فروى لنا خبراً مؤلماً عنها ، ((قال محمد بن اسحق : خبرني الثقة أنه انهار في ستة خمسين وثلاثمائة من سني الهجرة أزج أمر لم يعرف مكانه ... والذي رأيتُ أنا بالمشاهدة أن أبا الفضل بن العميد انفذ إلى هاهنا في ستة نيف وأربعين كتباً منقطعة أصيبت بأصفهان في سور المدينة

---

[١] الحيوان ٦١/١

[٢] ينظر: في التراث العربي .

في صناديق وكانت باليونانية ... وكانت الكتب في نهاية نتن الرائحة حتى كأن الدباغه فارقتها عن قرب ، فلما بقيت ببغداد حولاً جفت وتغيرت وزالت الرائحة عنها ، ومنها في هذا الوقت شيء عند شيخنا أبي سليمان))[1] . والشيء المؤلم فيه أنها أصيبت ؛ أي تعرضت لمصيبة عندما انهار أزج آخر في بنائها ، مما يعني أن أزجا آخر قد سبقه في الانهيار إلا أنها لم تنقذ ، ولم يصلح العطار ما افسد الدهر ، مما يدل على إهمال الناس والدولة لها . ولهذا وصف كتبها بأنها منقطعة ، ولعله يقصد مهجورة ، وذنبها الذي هجروها بسببه أنها كانت باليونانية ، لايفهمومنها ، وإذا كان فيهم من يفهمها فإنه لا يستطيع مراجعتها ؛ لأنها في نهاية نتن الرائحة ، وذلك أنها مكتوبة على الجلود . وهنا لابد من المقارنة ، فقد ذكرنا سابقاً أن ملوك الفرس اختاروا لكتبهم مادة لحاء شجر الخرنك ، أي أنهم استخدموا الورق ، وهذه الكتب المصابة مكتوبة على الجلود ، ولتفسير ذلك يقول : إما تلك الكتب قد دونت في مرحلة سبقت مرحلة استخدام الورق ، مما يدل على قدمها ، أو أنها كتب مستوردة من أمم أخرى تستخدم الجلود ، لا سيما أنها يونانية .

المبحث الثالث

جمع الكتب وأوساط المثقفين

أشار الجاحظ إلى أربعة مصادر للتحصيل العلمي ، قال بعد أن تحدث عن صعوبة العلم وضعف الإنسان على الإحاطة به ، حتى ((ولو استمد بقوة كل نظار حكيم ، وإشعار حفظ كل بحاث واع وكل نقاب في البلاد ، ودراسة للكتب))[2] .

---

[1] الفهرست ص ٢٩٩.

[2] الحيوان ٥/٢٠٠ .

ومصطلحاتها العلمية المقابلة لها هي : المناظرة الفلسفية . والبحث الهادف، والرحلة والدراسة ، وقد استخدم لكل منها صيغة مبالغة ، ليدل على المواظبة وبذله الجهد وضرورة الاستمرار في تحصيل كل مصدر ، ليكسب بذلك ملكة في المعرفة التي يبتغيها ، والمعرفة المتعلقة . بموضوعنا هي دراسة الكتب ، والملكة التي تحققها الكتب هي أن يعلم ، ويجمع العلم ويختلف إليه [١] ، أي يتعلم وبعدها يكون عالماً ، ثم يصير معلماً يختلف إليه الطلاب ، ولا مفرّ له من بذل جهد ومال شيئين : كثرة السماع ، وحيازة الكتب ، ((فالإنسان لا يعلم حتى يكثر سماعه ، ولابد من أن تكون كتبه أكثر من سماعه))[٢] .

ولهذا حث الجاحظ على تدوين الكتب وقراءتها والترغيب في اصطناعها[٣].

أي أنه من الباحثين الأوائل الذين دعوا إلى تأسيس مكتبات وتكون حيازة الكتب بوسائل عديدة ؛ تختلف بعضها باختلاف العصور ، وأقدمها التدوين تلك العملية الشاقة والبطيئة ، وقد اعتمد العلماء عليها ، واختفت في عصرنا لظهور المطابع ((قال يعقوب بن السكيت : مات أبو عمرو الشيباني وله مائة وثماني عشر سنة ، وكان يكتب بيده إلى أن مات ، وكان ربما استعار مني الكتاب وإذا ذاك صبي أخذ عنه وكتب من كتبه))[٤] ، والشيء الظريف الموثوق في هذا أن التلميذ يروي عادات أستاذه بعد وفاته ، وقد اعتمد الشيخ في حيازة الكتب على يده، ولما كانت العملية شاقة وبطيئة لا يستطيع استنساخ كل ما يحتاجه من الكتب، ولهذا كان يضطر إلى استعارة بعضها من

---

[١] ينظر : المصدر نفسه ٥٥/١ .

[٢] المصدر نفسه ٥٥/١ .

[٣] ينظر : المصدر نفسه ٨٤/١ ، رسائل الجاحظ / في نفي التشبيه ٢٩١/١ .

[٤] الفهرس ص٩٣ .

تلميذه ، والتلميذ هو الآخر كان يكتب من كتب أستاذه ، أي انه يستنسخ نسخاً أخرى لكتب أستاذه ، ولعله تأثر في هذه العادة المفيدة ، وبشيء طريف آخر في الرواية وقد يبدوا غريباً في عصرنا أن الشيخ عمرَّ طويلاً ، واستمر في التدوين إلى آخر أيام حياته ، مما يعني أن الكبر لم يعطل قواه الفكرية والحركية . والمكتبة التي تركها الشيخ الميت كانت عند القدماء ميراثاً لأبنائه ، بل هي اعزُّ وأثمن ممتلكاته التي خلفها لأحفاده ، لأنها تمهد لهم سبل التعلم ، ((قالوا : ومتى كان الأديب جامعاً بارعاً ، وكانت مواريثه كتباً بارعة وآداباً جامعة ، كان الولد أجدر أن يرى التعلم حظاً))[1] وقد تصدرت هذا النص كلمة : قالوا)) ؛ أي أنها أقوال يتداولها الناس في أحاديثهم ، وعادات متعارف عليها في مواريثهم ، هي وسيلة ثانية لحيازة الكتب . إلا أن أكثر الوسائل شهرة بين القدماء والمحدثين هي المال ، وإذا كان المحدثون يطلقون على المال المدفوع للحصول على الكتب (بيع وشراء) فأن القدماء كانوا يسممونه إنفاقاً)) ولعل الفرق بيننا وبينهم هو أننا ننظر إلى المكتبات على أنها سلعة قابلة الربح والخسارة ، بينما كان القدماء ينظرون إليها على أنها حاجة مرتبطة بالنفس والفكر) ((قال إبراهيم بن السندي مرة ... إذا غُرمت مالاً عظيماً مع حبي المال وبفضي الغرم – كان سخاء النفس بالإنفاق على الكتب دليلاً على تعظيم العلم ، وتعظيم العلم دليل على شرف النفس ، وعلى السلامة من سكر الآفات))[2] ، فقد عد الإنفاق على الكتب كرماً ، والكرم عند العرب في أساسه يتعلق بالضيف ، وقد نقله إبراهيم بن السندي إلى الكتب ، مما يعني أن قيمته تحولت من مفهوم اجتماعي إلى مجال علمي ، ونريد أن نقف عند الكرم

---

[1] الحيوان ١٠١/١ .

[2] المصدر نفسه ٥٥/١-٥٦ .

والإنفاق واختلاف مجالاتها باختلاف المراحل الحضارية ، ففي المجتمع البدوي القائم على تقاليد القبلية كان الناس يلهجون بقيم الكرم المبني على إيواء الغريب ومساعدة المحتاج وإشباع الجائع ليكسبوا بذلك محامد الأخلاق ويصونوا أحسابهم وأنسابهم .

قال عمرو ين الأهتم السعدي :

ذريني فأن الشحَّ يا أُمَّ هيثم لصالح أخلاق الرجال سَرُوقَ ج

ذريني وحطي في هواي فأنني على الحسب الزاكي الرفيع شفيقُ جج

وكل كريم يتقى الذم بالقرى وللحمد بين الصالحين طريق جج جج

لعمرك ما ضاقت بلاد بأهلها ولكن أخلاق الرجال تضيق [1] ج جج

وفي المجتمعات الحضرية تتحرر العلاقات الاجتماعية من القيم التقليدية المحافظة، فيكثر الاختلاط وتنتشر وسائل اللهو وتزداد الفوارق الطبقية وتزدهر العلوم ، فيسلك الإنفاق سبلاً عديدة ، فأما أن تشبع اللذة ومجالها القيان ، أو يخدم الترف ومكانه البنيان ، أو يرضي العقل وضالته في الكتب – وقد حاول الجاحظ أن يعرض هذه المجالات دون تفصيلها ، فذكر أن الإنسان إذا لم تكن نفقته التي تخرج في الكتب ألذ عنده من إنفاق عشاق القيان ، والمستهترين بالبنيان .

---

[1] ديوان الحماسة ص٥٤٠– ٥٤١ . حطي في هواي : أي وافقيني ، القرى : طعام الضيافة، تضيق: أي تضيق بهم

لم يبلغ في العلم مبلغاً رضياً . وليس ينتفع بإنفاقه ، حتى يؤثر اتخاذ الكتب، إيثار الإعرابي فرسه باللبن على عياله وحتى يؤمل في العلم ما يؤمل الإعرابي في فرسه))[1] .

وكأن الجاحظ في هذا النص القصير يعرض علينا صوراً لمراحل حضارية متباينة، نلمح فيها الإعرابي راكباً جواده ، والعالم منهمكاً بكتبه ، والغني جالساً في قصره ، والعاشق يستمع لقيانه . وتختزل المراحل كلها وتنظر فيما يؤمله العالم في كتبه ، فنلاحظ أن الكتب أوعية للعلم ، ((والعلم وإن كان حياة العقل حياة كما أن العقل حياة الروح والروح حياة البدن ، فان حكمة حكم الماء وجميع الغذاء))[2]، وهذا ترتيب للحياة يتفق وترتيب الفلاسفة المسلمين الموجودات قادها مرتبة الموجودات الحسية وأعلاها المدركات العقلية ، ولكل مرتبة غذاء ، فالبدن غذاؤه الماء والطعام ، والإيمان غذاء الروح ، والعقل غذاؤه العلم ، وفي ترتيب الجاحظ زيادة لعلها تتفق وفكر المعتزلة ، فقد جعل العقل أعلى مرتبة من الروح ، لأن المعتزلة ، لا يؤيدون إيماناً لا يقتنع به العقل ، وكأن العقل قوام أعلى الروح . وقد قسم الجاحظ العقل نفسه إلى مرتبتي ونسب ذلك إلى الحكماء أي الفلاسفة ، قال : ((أجمعت الحكماء أن العقل المطبوع والكرم الغريزي لا يبلغان غاية الكمال إلا بمعاونة العقل المكتسب ، ومثلوا ذلك بالنار والحطب ، والمصباح والدهن ، وذلك أن العقل الغريزي آلة والمكتسب مادة . وإنما الأدب عقل غيرك تزيده تزيده في عقلك))[3] والعقل المطبوع أعلى مرتبة ، لأن المكتسب مادة ، أي هو غذاء له،

---

[1] الحيوان ٥٥/١ .

[2] رسائل الجاحظ / في كتاب الفتيا ٣١٨/١ .

[3] رسائل الجاحظ / المعاش والمعاد / ٩٦/١ .

بمعنى أن العقل المكتسب هو العلم ، بدليل أن الجاحظ قال : ((إنما الأدب عقل)) . ويبقى العقل قاصر عن الكمال دون ويبقى العقل المطبوع قاصر عن الكمال دون اكتساب المعرفة عن طريق دراسة الكتب والنظر فيها ، وقد مر بنا سابقاً أنه فضل الطبقة الخاصة في المجتمع أي العلماء والمثقفين على الطبقة العامة الذين وصفهم بألفاظ تدل على نفوره منهم ، ولعله رأى أن عقولهم المطبوعة لم تعاونها عقول مكتسبة لبلوغ غاية الكمال الذي بلغته عقول الطبقة الخاصة . ((ولولا جياد الكتب وحسنها ، ومبينها ومختصرها لما تحركت همم هؤلاء لطلب العلم ، ونزعت إلى حب الأدب واتقت من حال الجهل ، وأن تكون في غمار الحشو ، ولدخل على هؤلاء من الخلل والمضرة من الجهل وسوء الحال ، ما عسى ألا يمكن الأخبار عن مقداره إلا بالكلام الكثير))[١] ، والسعي لطلب العلم وإفشاء الكتب على وفق النص السابق يتحقق أكثر من هدف ، الأول نفسي ، هو إشباع النفس في نزوعها إلى حب الأدب، والثاني اجتماعي حيث يحميها من الانحدار إلى طبقة سفلى في المجتمع وهم الجهال ، والثالث مرتبط لما فيه من خلل ومضرة وسوء حال نتيجة الجهل ، ولعل ذلك إشارة إلى العلاقات الاجتماعية لمنافع المادية المتبادلة بين الناس ، ولا يخلو جميع الكتب في عصر الجاحظ من هذين الهدفين : حب لها أو طمع فيها ، وقد أحس الجاحظ في قرارة نفسه واعترف بحبه لها ((ولم أزل – أبقاك الله – بالموضع الذي عرفت من جمع الكتب ودراستها والنظر فيها))[٢] . وقد روى أحد معاصريه أنه ما دخل عليه إلا رآه ينظر في كتاب أو يقلب كتباً أو ينقضها [٣]

---

[١] الحيوان ٨٧/١ .

[٢] رسائل الجاحظ /المعاش والمعاد ٩٥/١ .

[٣] ينظر : معجم الأدباء ٧٥/١٦ .

. وقد فضل الجاحظ قراءة الكتب بدافع الحب لها والحث على قراءتها للانتفاع بها ، قال : ((ليس من نظر في العلم على الرغبة والشهوة له كمن نظر فيه على الكسبة به والهرب إليه))[١] ، وأجمل عصر للكتاب هو الذي تتوافر فيه الرغبة والمنفعة ، إلا أنه يكسد في السوق ، وينام على رفوفه في المكتبات إذا رغب الناس عنه ولم ينتفعوا به .

ترددت في حديث الجاحظ عن المكتبات أربع تسميات هي : اصطناع الكتب ، واتخاذها ، وتحصيلها ، وجمعها ، مما يدل على شيوعها في عصره ، وعدم استقرار مصطلح مشهور منها يدل على عملية تكوين المكتبات ، ويمكننا تحديدها عن طريق الموضع الذي ذكرت فيه ومدلولاتها . وقد ذكر كلمة ((الاصطناع)) أثناء حديثه عن الترغيب فيها ، ((ثم رجع بنا القول إلى الترغيب في اصطناع الكتاب))[٢] .

والاصطناع يدل على المعروف والحرفة ونسبة الشيء للنفس [٣] ، مما يعني أن الجاحظ في هذا المدلول يدعو الى عادة يراها صحية وحرفة نافعة هي قراءة الكتب ، أي إنه يؤلف للكتاب أنصار ، وعندما نتوطد أواصر الصداقة بين الكتاب وقارئه ، تبدأ مرحلة (الإيثار)) ، فذكر فيها كلمة ((اتخاذ)) . فالقارئ ((لم يبلغ في العلم مبلغاً رضياً ، وليس ينتفع بأنفاقه، حتى يؤثر اتخاذ الكتب ، إيثار الإعرابي فرسه باللبن على عياله))[٤] ، وفي النص

---

[١] رسائل الجاحظ /في نفي التشبيه ٢٩٦/١ .

[٢] الحيوان ١٤/١ .

[٣] ينظر : مختار الصحاح ((صنع)) ٢٤٣-٢٤٤ .

[٤] الحيوان ٥٥/١ .

والاتخاذ دلالتان ، فالاتخاذ تدل على الافتعال [١] ، وفيها معنى الكثرة ، والإيثار يعبر عن الحب ونكران الذات ، أي أن القارئ بدأ يحب الكتب وظهرت عنده رغبة في اقتنائها والإكثار منها . وهي خطوة أولى في تكوين المكتبات ، وذكر كلمة ((تحصيل)) أثناء حديثه عن مغالاة الزنادقة في الإنفاق على الكتب ، حدثنا الجاحظ قال : ((قلن لإبراهيم : إن إنفاق الزنادقة على تحصيل الكتب كأنفاق النصارى على البيع))[٢] ، مما يعني أن العقيدة أصبحت عاملاً مشجعاً على تكوين المكبات ، لأن الكتب تساعدنا على نشر مبادئها وأفكارها وعندما يكون أحد القراء تساعدها في عصرنا بحاجة ماسة إلى كتاب معين ، فيجده بعد بحث عنه يقول : لقد حصلت عليه بتشديد الصاد ، ولعل القدماء يخففونها ، ومعلوم أن المغالاة في الإنفاق على الكتب التي تلبي حاجة أو تخدم مبادئ معينة أو عقائد بعينها هي خطوة أخرى في تكوين المكتبات، وفي عصرنا تخصصت مكتبات بفروع معينة وميادين خاصة . حيث تجد مكتبات دينية وأخرى سياسية وثالثة طبية ثم ذكر كلمة ((جمع)) في حديثه عن دراسة الكتب وأهميتها العقلية والأخلاقية ((لم أزل – أبقاك الله – بالموضع الذي قد تحرفت في جمع الكتب ودراستها والنظر فيها ، ومعلوم أن طول دراستها إنما هو تصفح عقول العاملين ، والعلم بأخلاق البنين، وذوي الحكمة في الماضين والباقي من جميع الأمم ، وكبار أهل الملل))[٣] وهنا تتشعب أهداف الجمع ، أولها طول دراستها والنظر فيها .

---

[١] ينظر مختار الصحاح ((أخذ))

[٢] الحيوان ٥٦/١ .

[٣] رسائل الجاحظ /المعاش والمعاد ٩٥/١ .

فيما يعني المطالعة ، وطول الدراسة يدل على الرغبة في التبحر بالعلوم، والأهداف الأخرى عقلية هي لتصفح عقول العالمين ، وأخلاقية كالعلم بأخلاق النبيين ، وفلسفية ذات طابع تاريخي يمكن أن نطلق عليها حضارية خاصة بذوي الحكمة من الماضين والباقين في جميع الأمم ، ثم دينية وهي كتب أهل الملل .

ودلالات هذا كله أن الجاحظ دعا إلى تكوين مكتبات كبيرة تضم فروعاً عديدة للمعرفة وكلمة ((جمع)) التي تدل على ((جمع الشيء المتفرق))[١] تؤكد ذلك، فالكتب متفرقة في ميادين معرفتها ، وأماكن وجودها ، وتكوين المكتبات يتطلب جهداً ومالاً في جمعها من أماكنها المتباعدة ، مما يشيرالى جمعها ميادينها المتنوعة ، ولي أصالة فكر الجاحظ لأن كلمة ((جمع الكتب)) أثبتت صلاحها للتطور الحضاري فأصبحت مصطلحاً متداولاً ومشهوراً في المؤسسات العلمية والمكتبات وبين أوساط المثقفين .

أوساط المثقفين

لم تقتصر عناية الجاحظ بالكتاب على تدوينه وقرائته وإنما دعا إلى صيانته وحفظه ، قال لبعض قرائه : ((فأن يصلح الكلام وكان وكما وصفت لك وكما ضمنتُ ، حثثت على قرائته وعلى اتخاذه ، وعلى تخليده وعلى تدوينه))[٢] .

فليس من التدبير في شيء أن يدون الكتاب ويشتري ثم يقرأ ، وبعدها يترك في أي مكان وعلى أي هيئة ، فيكون عرضة للرطوبة وعبث الآفة وتساقط الغبار، مما يؤدي إلى فقدان نضارته وذهاب جدته ، ولعل الجاحظ

---

[١] مختار الصحاح ((جمع)) .

[٢] رسائل الجاحظ / رسالة في نفي التشبيه : ١/ ٢٩١ .

كان يفكر بمصير الكتاب بعد تدوينه بزمن ، فأوصى القراء بتخليده ، واختيار لفظة الخلود دليل على بُعد التفكير وصدق الإحساس ، لأن الخُلد يدل على (دوام البقاء) [١] ، وهي صفة لا يحمل بعض مظاهرها إلا من امتلك نتاج العقل وهي الأفكار مما يعني أن الجاحظ يرى أن الأفكار التي يحملها الكتاب هي أقرب إلى الخلود ، ويذكرنا قوله سابقاً أن العلم (كان حياة العقل)[٢] أي أنه أعلى مراتب الوجود الإنساني ، والكتاب بورقه وحبره وغلافه هو ثوب للفكر ، فحري بالقراء أن يحافظوا على ذلك الثوب من الحرق والتمزيق والعبث حتى يصل إلى الأجيال التي تأتي بعد مؤلفه لتجديده بعد قدمهِ ، – أي أنهم يجددون ثوباً بالياً لروح خالد. وقد ((قيل لابن دامة – وأخرج كتاب أبي الشمقمق ، وإذا هو في جلود كوفية، وذفتين طائفيتين بخط عجيب – فقيل له . لقد أُضيع في تجوَّدَ بشعر ابي الشمقمق ! فقال : لا جرم والله! أن العلم ليعطيكم على حساب ما تعطونه ، ولو استطعت أن أودعه سويداء قلبي ، أو أجعله محفوظاً ، على ناظري ، لفعلت))[٣].

وكلمة (أخرج) تعني أخرجه من مكان كان محفوظاً فيهِ ، كالخزانة أو الصندوق ، ومعلوم أن الجلود الكوفية هي أرقى الجلود في الكتاب للينها ، وقد وصف الخط بأنه عجيب أي أنه يفوق الخطوط المعروفة مما يجعله يُثير العجب لأنه متفرد وغريب وكأن العين لم ترَ مثلاً له ، وقد توفرت لذلك الكتاب المادة الصالحة واليد الماهرة والمكان الأمين ، ولذلك قال : لقد أُضيع من تجوَّدَ بشعر أبي الشمقمق ، أي أنه تخيَّر الأجود لكتابته وحفظه ، وقد ذهب الذي

---

[١] مختار الصحاح (فَكر) .

[٢] رسائل الجاحظ / في كتاب الفتيا : ١/ ٣١٨ .

[٣] الحيوان : ١/ ٦١ .

تخيَّر الأجود وأوضح أن في عداد الضائعين ، فذكروه بعبارة تُعبر عن الندم : أُضيع من تجوَّد، لأنه ترك أثراً خالداً فحفظه من الضياع ، بني صاحب الأثر الخالد قد ضاع أي مات ، أما تعليق ابن دامة فذو شطرين : الأول واقعي هو قوله : أن العلم يعطيكم على حساب ما تعطونه ، فاعطاؤهم إياه هو رعايتهم له وحفظه واختيار الأجود لهُ واعطاؤه إياهم هو تزويدهم بالمعارف والتجارب التي تساعدهم على التواصل بين الغائب والحاضر لحفظ حاجتهم ومعرفة ((الأخبار عن القرون الماضية والبلاد المتنازعة والأمثال السائرة والأمم البائدة))[١] .

ولولا حفظهم له لأنقطع التواصل وانعدم التفاهم ، أما الشطر الثاني : فأنه رومانسي وهو قوله: لو استطعت أن أودعه سويداء قلبي ، أو أجعله محفوظاً على ناظري ، لفعلت ، ورومانسيته في أنه أحب الكتاب وشغف بقرائته واعتاد على جمعه وحفظه والنظر فيه وتقبيله ، فصار بمثابة العاشق الملازم لهُ ، فلم يجد عبارات صادقة في التعبير عن حفظه له وإيداعه إياه أصدق من عبارات العاشق . والجاحظ نفسه قد عشق الكتاب ، وروى أحد معاصريه أنهُ قال : ((ما دخلت إليه إلا رأيته ينظر في كتاب أو يقلب كتباً أو ينقضها))[٢] ، وتؤخر الحديث عن النظر والتقليب إلى المطالعة لتتوقف عند النفض ، فإذا قلنا ((نفض الثوب والشجر .... أي حركه لينفض))[٣] ، والقصد في التحريك أن يتساقط الشجر أو الماء . أو الشيء الذي يعلق بالكتاب هو الغبار ، وما زالت مكتباتنا تعاني منه ، وتحتاج دائماً إلى تخليصها منه ، ولا بد أن تكون عادة

---

[١] المصدر نفسه : ١/ ٤٢ .

[٢] معجم الأدباء : ١٦/ ٧٥ .

[٣] مختار الصحاح (نَفَضَ) .

الجاحظ في نفض الكتب متبعةً عند معاصريه ولعلهم قد أدركوا خطورة الغبار الذي على الكتب والقراء ، فهي تعبث بالأوراق كالأرضة ، فإذا تراكمت امتزجت بالورق والحبر . فتتغير لونها .

المصادر والمراجع

- أدب الكتاب ، أبو بكر محمد بن يحيى الصولي (ت ٣٣٦هـ) ، نسخه وعني بتصحيحه وتعليق حواشيه : محمد بهجة الأثري ، المطبعة السلفية ، القاهرة ، ١٣٤١هـ.
- أصول نقد النصوص ونشر الكتب ، محاضرات المستشرق الألماني برجيستراس بكلية الآداب السنة ٣١، ١٩٣٢، إعداد وتقديم : د. محمد مهدي البكري ، مطبوعات دار الكتب ، وزارة الثقافة ، مركز تحقيق التراث، ١٩٦٩
- تراث الإسلام ، تصنيف : شافت وبوروث ، ترجمة : د. حسين مؤنس وميليه، عالم المعرفة، الكويت، ط٢، ١٩٨٨.
- الحيوان ، الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر ت ٢٥٥هـ ، تحقيق وشرح عبد السلام محمد هارون، مطبعة مصطفى البابي الحلبي، مصر، ط١، ١٣٥٦هـ- ١٩٣٨م .
- ديوان الأعشى الكبير ، ميمون بن قيس ، شرح وتعليق: د. محمد حسين، المطبعة النموذجية ، مصر .

- ديوان الحماسة ، أبو تمام ، حبيب بن أوس الطائي (ت ٢٣١هـ) ، تح: د. عبد المنعم أحمد صالح ، دار الرشيد للنشر، بغداد ، ١٩٨٠، سلسلة كتب التراث ١٠١ .
- رسائل الجاحظ ، الجاحظ ، د. محمد طه الحاجري، دار النهضة، بيروت، ١٩٨٢.
- رسالة ابن قتيبة في الخط والتعلم ، ابن قتيبة، عبد الله بن مسلم الدينوري (ت٢٧٦هـ) ، تحقيق : هلال ناجي، المورد، المجلد ١٩، العدد١، ١٤١٠هـ-١٩٩٠م.
- الفهرست ، ابن النديم، أبو الفرج محمد بن أبي إسحق الوراق، اعتنى به وعلق عليه الشيخ إبراهيم رمضان، دار المعرفة ، بيروت، ط١، ١٤١٥هـ-١٩٩٤م.
- لسان العرب ، ابن منظور ، أبو الفضل جمال الدين بن محمد بن مكرم (ت٧١١هـ) .
- مختار الصحاح ، محمد بن أبي بكر بن عبد القادر الرازي (ت ٦٦٦هـ)، الناشر دار الكتاب العربي، بيروت، ط١، ١٩٦٧.
- معجم الأدباء ، شهاب الدين ياقوت بن عبد الله الحموي (ت ٦٢٦هـ) ، مطبوعات دار المأمون ، مصر ، سلسلة الموسوعات العربية .
- المورد ، مج١٩ ، ع١ ، ١٩٩٩ .